اتجاهات مختلفة في تصوير الطبيعة

عند الشعراء الجاهليين

الدكتور نوري حمودي القيسي
المدرس في قسم اللغة العربية

لم يأخذ وصف الطبيعة عند الشعراء الجاهليين نمطاً واحداً ، وانما كان عرضهم لمظاهرها – الصامت منها والحي – يختلف باختلاف طبيعة الحياة التي يحياها الشاعر نفسه ، ومن هنا جاء اهتمامهم بها ، وتعبيرهم عن مظاهرها ، ووقوفهم عندما برز من هذه المظاهر • حتى انفردت كل طائفة من الطوائف بوصف متميز ، واتجاه واضح •

الطبيعة في شعر المعلقات

تُعدُّ المعلقات – على الرغم من تفاوت اغراضها – صورة صادقة للطبيعة الجاهلية ، وتعبيراً واضحاً لمظاهرها الصامتة والحية ، لأن بعض الشعراء حاول ان يظهر قدرته الفنية ، وبراعته على الوصف ، كما هو الحال عند طرفة • وهي تعد امتداداً للصور والاخيلة والمعاني التي كان الشعراء الجاهليون يستعملونها في قصائدهم ، ولم نجد منها صوراً جديدة ، أو مغايرة لما عهدناه في الشعر الجاهلي ، باستثناء قصيدة طرفة التي تعرض فيها لذكر الناقة •

لقد كان للطلل في حديث المعلقات شأن ، وللمواقع والمعاهد والجبال والعيون والآبار شأن لا يقل عن الطلل ، لما تركته هذه الآثار في نفوسهم ، وما كانوا يحسون به عند وقوفهم عليها • ففي معلقة عبيد ، ملحوب والقطبيّات والذنوب وراكس وثعليات ، وذات فرقين ، والقليب ، وعروة ، وقفاحر • وفي معلقة امرىء القيس ، سقط اللوى ، والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة ، ووجرة وضارج ، ويذبل ، والعذيب ، وقطن ، وتيماء • وفي معلقة طرفة ، حومل وضرغد ، وفي معلقة الحارث ، الخلصاء ، والمحياة والصفاح والعليا ، وفي معلقة عمرو بن كلثوم ، اليمامة ، والشامات ، ورهوة • وفي معلقة النابغة ،

العليـــاء ، والســـند ، ووجرة ، وتدير ، وتوضـح ، والحيرة • وفي معلقـة عنترة • الجواء ، والمتثلم ، ، والصمان ، والرواع • وفي معلقة زهير ، حومانة الدراج والمتثلم ، والرقمتان ، والقنان ، والسوبان ، وفي معلقة الاعشى ، نمار وبطن الخال ، والعسجدية ، والابلاء ، والحبل ، والحظ ، وفي معلقة لبيد منى والغول ، والرجام ، والريان ، وتوضح ، ووجرة وبيشة وتهامة • وفيها بعـد كل هذه المواضع والاماكن ذكر لبرقة ثهمد وبرقة شـــماء ، وبرقـة خنزير ، ودارة جلجل وروض القطا والحدائق[1] •

وتحدث شعراء المعلقات عن الرياح فذكر عبيد هبوب الشـمال ، وذكـر امرؤ القيس الجنوب والشمال والصبا ، ووقف عمرو بن كلثوم عندها في تشبيهه لتشنح الدروع ، اما النابغة فقد عرض لها في حديثه عن الناقـة الضامرة ، التي قلّ لحمها ، فأصبحت كالسحابة ، تدفعها أقلّ الرياح ، واتى الاعشى على ذكر الرياح في حديثه عن اصوات الحلي وهي توسوس في معصم صاحبته ، وذكر لبيد الرياح ، وخصص الشمالية ، أو ريح الشتاء في كلامه عن كرم قومه •

وذكر عبيد التلال ، ووقف امرؤ القيس عند الوديان والرمال والكثبـان والاحقاف والهضاب والصخور والجبال ، واشار طرقة الى الصحراء ، ولبيد الى الصخور والرمال ، واستخدم السراب في تحريك صورة الصحراء ، فهي تهتز وتضطرب عنده ، وان الظعون حين ينكشف عنها السراب تبدو كاشجار الاثل •

وعرض الشعراء للسـحاب والبرق والرعـد والمطر والبَرَد والصقيع ، فاشار عبيد الى الصقيع الذي كلل ريش العقاب ، وامرؤ القيس الى البرق وومیضه ولمعانه وسناه ، وانتظاره له ، وتأمله فيه ، والسيل الذي لم يدع بيتاً الا هدمه ، أو جذع نخلة الا حطه ، واحـاط بالجبـال وعمّ الصحراء بالخصب ، واغرق السباع ، وأنزل العصم المستقرة من اعالي الجبال ، واشار طرفـة الى المطر في حديثه عن ناقته ، ورعيها في الربيع ، وفي تعديد ملذاته التي اعتبرها من عيشـة الفتى ، وتحدث النابغة عن السحاب ، والثور الذي اصابه المطر ، والبَرَد الذي

---

(١) انظر المعلقات فى دواوين اصحابها ، وفى شروح المعلقات للانبارى والزوزنى والتبريزي •

تخاف منه الخيل فتسرع ، ووصف عنترة المطر ، وسكبه الشديد ، وشبه الاعشى مشية صاحبته ووداعتها وخفتها وشاقتها بالسحابة ، تسبح في الفضاء ، متمهلة ، وذكر السحاب العارض في حالة ترقبه له ، وتتبعه ، وفي حديثه مع اصحابه عن السحاب الممتليء بالماء ، والبرق الذي يلمع ، وشبهه بالشعلة في حافات هـذه السحب ، ووصف الروضـة التي جاد عليها المطر ، وذكر لبيد ديار احبتـه ، والسنوات التي اكتملت عليها ، منذ ان كان يسكنها القوم ، فأصابها المطر والرعد والسحاب ، وذكر في حديثه عن ناقته التي اضمرها التعب ، واهزلتها الاسفار ، فذهب لحمها ، فأصبحت كالسحابة التي قلّ ماؤها ، وفي حديثه عن ناقته ، وقد شبـهها بالبقرة التي تناهبت الذئاب شـلوابنها ، فباتت والمطر الغزير الدائم يتسـاقط عليهـا .

وورد ذكر المياه ومواردها وعيونها ووراداها كثيراً في شعر المعلقات ، فذكر عبيد معين الماء ، والنهر الصغير والجدول والماء الآجن ، وذكر امرؤ القيس ، الماء النمير ، اما طرفة فقد صور اثار النسع في ظهر راحلتـه باثار وَراد الميـاه عـلى الهضبة المرتفعة ، وشبه عيون ناقته وصفاءَها بصفاء الماء النقي وذكره في حديثه عن الخمرة ، وشبه نفسه وهو يسرع الى اغاثة الملهوف أو المكروب ، باسراع الذئب الى مورد المياه ، وشبه الحارث خروج الدم من اجسام خصومه ، بخروج الماء من منابعه ، وشبه عمرو بن كلثوم الدروع في صفائها ، بصفاء الماء في الغُدُر وكنىّ عن العز بورود الماء الصافي ، وذكر عنترة عين الماء الثرّة التي تشبه في استدارتها وصفائها الدرهم ، واشار زهير الى ورود المياه في حديثه عن الظعون ، وفي معرض حديث لبيد عن سرعة ناقته وهي ترفع عنقها نشاطاً ، وتقصد المورد ، شبهها بالقطاة التي اسرعت الى الشرب في اثر قطا سبقها الى الورود .

وفي المعلقات ذكر لنبات الصحراء واعشابها واشجارها وازهارها وعطورها ، فذكر عبيد النخل وامرؤ القيس الصمـغ العربي والحنظـل والقرنفل والكتـان والكنهبل والنخل وعذوقه التي شبه بها الشعر التام ، الشديد السواد ، ومساويك الاسحل ، واشار طرفة الى البرَير ، وشبه بياض الشعر ببياض نور الافحوان ، وذكر الضال والعشر والخروع ، وذكر الحارث . النخيل ، والنابغة السعدان

والخشخاش ، وعنترة العظلم ، والاعشى حب العشرق والزنبق ، ولبيد اشجار الاثل والعرفج والنخيل والايهقان .

اما الحيوان ، فكانت اشارات الشعراء اليه كثيرة ، ووقوفهم عند اعضائه ادق واوصافهم له اغنى واتم ، وخاصة ما كان منه على صلة بحياتهم ، وفائدة ينتفعون بها في رحلاتهم الطويلة ، ويعتبر وصف الناقة عند طرفة في معلقته من ادق ما وصل الينا ، من حيث القيمة الفنية ، والقدرة على الاحاطة ، والالمام بكل ما يتعلق بهذا الحيوان ، وهي بالتالي النموذج الكامل لطبيعة الوصف ، وما كان يقوم عليه هذا الفن الشعري[٢] ووقف امرؤ القيس عند فرسه الذي صور فيه فتوته ، ونمط حياته التي كان يعيش عليها ، ومن خلال هذه الفتوة ، رسم لنا اوصاف فرسه وسرعته ، وصلابته ونشاطه ، وسيره وتقريبه ، وامتلائه وصفائه وملاسته ، وتقييده الاوابد ، وخضاب نحره بالدم ، وادراكه للبقر الوحشي . دون جهد أو عناء وكذلك صنع عنترة حين وصف شجاعته وفروسيته ، ففرسه طويل القوائم ، ضامر الخصر ، ممتليء ، حوافره محكمة ، له ذنب ذو شعر طويل ، يظهر عتقه وكرمه في ساحة الحرب ، وعليه يقتحم الهياج ، وبه ينقض انقضاض الصقر على خصمه ، وقد رفع عنترة جواده في معلقته الى درجة الشعور الانساني ، والادراك الحقيقي ، حين منحه صفة الشكوى ، لانها لا تصدر الا من عاقل ، ولا يحس بها الا من وصل الى المرحلة الانسانية .

اما الشعراء الآخرون ، فكان تعرضهم لذكر الحيوانات تعرضاً عرضياً ، ومن خلال اوصافهم لرواحلهم ، سواء اكانت هذه الرواحل خيلاً ام نياقاً ، فذكر عبيد الناقة ، وشبهها بالحمار وبالثور ، وذكر فرسه ووصفها بالغلظة والضخامة ، ثم شبهها بالعقاب التي أبصرت ثعلباً ، وذكر مخلبها وكيف نفدت الى حيزوم الثعلب واشار عمرو بن كلثوم الى الناقة في حديثه عن الوجد والشوق والكرم ، والخيل في حديثه عن الحرب والبطولة فيها ، وتركها عاكفة على خصومه .

---

(٢) انظر معلقة طرفة فى ديوانه وشروح المعلقات .

وتحدث النابغة عن الناقة ، فشبهها بالثور المنفرد ، لان ذلك اظهر لها ، لنشاطها وحدتها ، وان هذا الثور اصابه المطر والبرد ، فكان مبيته مبيت سوء ، لارتياعه لصوت صياد ، فتضاعف خوفه ، وبات قائماً ، لا يطمئن الى النوم ، ثم يشير النابغة الى تفريق الصياد لكلابه ، ونشرهن ، وكان بينهن ضمران ، وعرض لوصف المعركة التي دارت بين الثور والكلاب ، وانتصار الثور ، وكيف نفد قرنه في لحم هذه الكلاب ، ثم يذكر اسم كلب آخر ، وهو واشق ثم عرض لذكر الابل في حديثه عن الكرم ، وكذلك الخيل ، وشبهها بالطير في سرعتها ، ووقف عند الحمام ، وشبه النعمان بالاسد ، واشار الى النسر في حديثه عن تغير علامات الدار وتعفيتها، وذكر عنترة الناقة التي تبلغ به دار حبيبته ، ونعتها بالقوة ، والشدة ، والنشاط ، وشبهها في سرعتها بسرعة الظليم ، وكيف يأوي الى جماعات النعام ، ثم شبه الظليم بعبد لبس فروا طويلاً ، ثم عاد لذكرها ، فوصف نشاطها ، حتى تحسب ان هراً يخدشها تحت ابطها ، وكلما امالت رأسها اليه ، زادها الهر خدشاً وعضاً ، ثم عاد لوصف الفرس وذكر الشاة ، مستعيراً هذا اللفظ للمرأة ، وذكر الظبية للغرض نفسه ، واشار الى الغزلان ، والمهر والنسر والضباع ، ويعرض لبيد في تشبيه ناقته لذكر الحمار ثم يشبه ناقته باتان يتبعها حمار ، واخيراً يشبهها بالبقرة المذعورة – يريد بذلك شدة سرعتها – التي فقدت ابنها ، فظلت تتردد قلقة ، في طلب هذا الابن ، ثم عرض لوصف كلاب الصيد ، وكيف لحقت بهذه البقرة ، فرجعت تطعنهن بقرونها ، التي تشبه الرماح ، وذكر اسماء هذه الكلاب .

هذا ما عرض له الشعراء في معلقاتهم من مظاهر الطبيعة ، وهي كما وجدناها، مظاهر لا تختلف عما وجدناه في صور الشعر الجاهلي الاخرى ، والفناه في المعاني والاخيلة والصور ، ولم تتميز هذه النماذج بصورة غريبةالا ما وجدناه في وصف طرفة للناقة ، وامري القيس وعنترة للفرس ، ولبيد للبقرة ، باعتبارها من الحيوانات التي استعملها الشاعر في ركوبه ومرعاه وحربه وفروسيته ، فلا غرابة اذا ألهبت خياله ، ورغبته في تقديم هذه الصورة الفنية ، ومن ثم فهي اول مصدر واهمه لضرورات الحياة ، وهي الرفيق الذي لا يعرف الملل والكلال في رحلاته الشاقة التي لا تنتهي عند حد ، في هذه البراري المقفرة ، والمفاوز

الموحشة ، التي يصدح فيها اليوم والصدى ، وترودها الضباع والثعالب ، اما بقية الحيوانات ، فكان تعرضه لها خفيفا ، كالاسود التي شبه بها اصحابه والذئب الذي اشار اليه طرفه والعقاب التي اتى على ذكرها عبيد ، والثعلب الذي جعله فريسة هذا العقاب، والشاة والظباء والغزلان والضباع ، والوعول التي اشار اليها الاعشى .

وتكاد تكون صورة المعلقة واحدة في أغلبها ، فهي تستهل بوصف اقفار الديار وتعديد مواضع الاحبة والاهل كما نرى عند عبيد وامريء القيس وطرفة والنابغة وعنترة وزهير ولبيد ، أما الحارث وعمرو بن كلثوم والاعشى فيخالفون هذه القاعدة ، لأن الحارث يبدؤها بالغزل ، وعمرو بذكر الخمرة ، والاعشى بتوديع صاحبته ، ثم ينتقل الشعراء بعد هذا الاستهلال الى ذكر الديار ، وما سكن فيها من الوحش ، بعد ان بدلت حالتها الخطوب ، فاذا علم انه استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ـ كما يقول ابن قتيبة ـ عقب بايجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسُرى الليل ، وحَرَ الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير[٣] ، الا زهيرا فان الرحلة التي وصفها لم تكن رحلته ، وانما هي رحلة الاحبة اللواتي بكرن بكورا واستحرن بسحرة[٤] .. وفي خلال اوصافهم لهذه الرحلة تبرز قدرة الشعراء على الوصف ، وتصويرهم للحيوان الذي كان يأتي ذكره عرضا في اوصافهم ، كما وجدنا ذلك في حديثهم عن البقرة والظليم والنعام والعقاب والذئب والحمام .

أما الطبيعة الصامتة ، فكان وقوف الشعراء عند مظاهرها طويلا ، لانها الباعث الحقيقي لهذا التطويل ، والمجال الخصب الذي تمكنوا فيه من اظهار فتوتهم وفروسيتهم . وتكاد صورتها تكون موزعة بينهم ، ولكن ذلك لا يمنع من تمييز بعض هذه المعلقات بالتعرض لبعض هذه المظاهر بصورة اوسع . وتفصيل اكثر . فامرؤ القيس يصف السحاب والبرق والرعد والمطر . ويقف عنده وقفة طويلة ، ومثله النابغة في حديثه عن الثور الذي اصابه المطر . وكذلك لبيد الذي عرض لذكره في حديثه عن البقرة التي باتت ، والمطر الغزير الدائم يتساقط عليها .

---

(٣) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١/ ٢١ (بيروت) .

(٤) زهير . الديوان/ ١٠ .

اما الماء فقد عرضوا له في احاديثهم عن الخمرة ، وتشبيه الدروع ، وخروج الدم ، وتشبيه اثار النسع ، وانفرد عبيد بذكر الانهار والجداول ، وعنترة بالاشارة الى العين الثرة . وعرض الشعراء للنبات الصحراوي والاشجار والازهار ولكن اكثر هذه الاشجار ورودا هو النخيل الذي ذكره عبيد وامرؤ القيس والحارث ولبيد .

الطبيعة في شعر الصعاليك :

رسم الشعراء الصعاليك صور الطبيعة البدوية التي مارسوا بها نشاطهم ، فكانت ميداناً فسيحاً ومسرحاً حيّاً لأعمالهم ، لاتصالها المباشر بهذه الحياة ، وعلاقتها باوجه الشبه التي استمد منها الشعراء صورهم ، فكانت الصحراء بما تضمه من شعاب وجبال وصخور ومياه وسحاب ورياح ومطر وحيوانات ، مجالا ثرا لهذه الصور ، فلا غرابة اذا برعوا في رسمها ، ونقلوا الوانها الزاهية ، والخافتة ، بكل امانة ، حتى اصبح من الصعب التمييز بين ما هو حقيقي ، وما هو غير حقيقي ، على ان العناية التي نلمسها في شعرهم ، كانت تغلب على استخدام الحيوان ، لانه يدخل في كثير من جوانب حياتهم ، فهم ذئاب تشرق وجوههم ، وهم بعد هذا اسرع من الظليم والنعام والقطا والظباء والحمر الوحشية ، وسوف نقف عند هذه المظاهر في حديثنا عن هذه الجماعة .

تعد منطقة السراة ، اوسع مسرح لحركة الصعاليك ، واكبر ميدان اظهروا فيه براعتهم وفنهم وقدرتهم على الغارة والهجوم ، ولعل التكوين الطبيعي لهذه المنطقة ، لما احتوت عليه من جبال مرتفعة ، وشعاب مهجورة ، ومراقب امينة ، واشجار كثيفة ، ساعدت على استخدامها ، وسيلة من وسائل الاختفاء ، ومستودعا غنيا من مستودعات السلاح الذي كانوا يستخدمونه في هجماتهم ، كل هذه الوسائل ، يسّرت على الصعاليك سبل الهرب والاختفاء ، ووجدوا فيها منافذ للتستر والمغامرة ، ولابد ان تدخل هذه المظاهر في اشعارهم ، وتطبع جزءً كبيرا من احاديثهم ، فكان للجبال ذكر في احاديثهم ، وكانوا يؤكدون قممها ، لاشرافها على الطرق ، ولصعوبة الوصول اليها ، ولهذا كان ينعتها تأبط شرا بسنان الرمح

لطولها ودقتها ، ولقلة من يتعرض لها ، لان التعرض لها ايقان بالقتل[٥] .

وقلّةِ كســـــنان الرمح بـارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق
بادرت قُلّتها صحبي وما كسلوا حتى نميت اليهـا بعد اشـــراق

ويصف الشنفرى تسلقه قنة جبل ، وجلسته عليه وهو يراقب ويطلع فيقول[٦] :

وخَرْقٍ كظهر التُرس قفر قطعته بعـاملتين ظَهرَهُ ليس يُعمـــل
والحقت اولاه بأخـــراه مُوفيـاً على قُنّـةٍ أقعى مراراً وامثـــل

اما المراقب فكانت تمثل المكان الحصين الذي يتربصون به لاعدائهم ، حتى تتاح لهم الفرصة المواتية للهجوم ، وقد صور الشنفري مرقبة منيعة ، يعجز دونها الصياد الماهر الخفيف ، الذي ضرّى كلابه ، ثم وصف صعوده اليها ، وقد دنا الليل بظلامه الاســـــود ، ثم وصف تربصه فوقها ، وتطوّيـــه تطوي الافعى فقال[٧] :

ومرقيـــة عنقـــاء يقصرُ دونهـا اخو الضروة الرجل الحفي المخفف
نعيت الى ادنى ذُراهـا وقـد دنا من الليل ملتف الحديقة اسدفُ
فيت على حـــد الذراعين مُجذباً كما يتطـــوّى الارقـــم المتعطف

وكانوا يؤكدون في حديثهم عن هذه المراقب علوها وشموخها ، ووعورة الطريق المؤدي اليها ، فهي شماء ، كان يقعي فوقها الشنفرى كما جاء في رثاء تأبط شراً له[٨] ، وهي عالية يحار الطرف فيها من بعدها عند عمرو ذي الكلب[٩] وهي في نتوء مشـــــرف من الجبل ، كأنه حـــد الفأس عند ابي خراش[١٠] . ومن احاديث الشعراء عنها نلمس مدى اهتمامهم بها ، حتى اصبح

---

(٥) المفضل . المفضليات ١/٢٧ .
(٦) الزمخشري : أعجب العجب /٦٧ .
(٧) الشنفرى . الديوان/٣٧ .
(٨) الطرائف الادبية/٢٨ .
(٩) عمرو ذو الكلب . شرح اشعار الهذليين ١/٥٧١ .
(١٠) نفس المصدر ٣/١٢٣٢ .

من يُعهد اليه بمهمة المراقبة رجلٌ مدرب على تسلقها ، قادر على التخفي والتستر ، صبور على تحمل مشاقها ، وقد اصبحت هذه المهمة مدعاة للفخر ، ومكرمة يمدح بها الرجل .

وكان حديثهم عن الصحراء الموحشة ، والوديان المخيفة ، يأتي من خلال مفاخرهم ايضا ، لانهم اعتبروا المكان النائي والوعر ، موجباً للمدح ، وحرياً بالفخر لمن يقدر على الوصول اليه ، وهذا ما دفع تأبط شراً الى مدح نفسه بهذه الصفة فقال[١١] :

انـي زعيم لئن لـم تتركوا عذلي ... أن يسـأل الحيّ عنّي اهل آفاقِ
ان يسـأل القومُ عني اهل معرفة ... فـلا يُخبرُهُم عن ثابت لاقِ

ويفخر عروة كذلك بقطعه فلاة مخوفة فيقول[١٢] :

وغبراء مخشـيّ رداهـا مخوفة ... اخوها باسباب المنـايا مُغرّر
قطعت بها شك الخلاج ولم أقـل ... لخيّابـة هيّابـة كيـف تأمرُ

ويتحدث تأبط شراً في مفاخره عن قطعه شعباً من الشعاب الوعرة ، الذي احاطت به الجبال من كل جانب[١٣] ، وكذلك يتحدث الشنفرى عن وادٍ بعيد العمق ، تسكنه الوحوش والذئاب ، اعتسفه بعد ما سقط الندى[١٤] ، وخلصوا من هذه القدرة ، وهذا التعود الى الفة حيوان الصحراء ، ومعاشرته ، ووجدوا فيه انيساً لكثرة مخالطتهم له ، فهو لا ينفر منهم ، وانما يأنس الى قربهم ، ويطمأن الى صداقتهم ، ولو ان هذا الحيوان صافح انساناً ، لاوشك على مصافحة أحدهم .

قال تأبط شراً[١٥] :

يَبيتُ بمغنى الوحش حتى الفتـه ... ويُصبحُ لا يحمي لها الدهر مرتعا
رأين فتى لا صيدَ وحش يهمه ... فلو صافحت انساً لصافحنـه معا

(١١) المفضل . المفضليات ١/٢٨ .
(١٢) عروة الديوان/١٣٠ .
(١٣) انظر الاصمعيات/١٣٥ .
(١٤) انظر ديوان الشنفري/٣٨-٣٩ .
(١٥) الاصفهاني . الاغاني ١٨/٢١٧ .

وقال الشنفرى[١٦] :

تزود الاراوي الصُمّ حولي كأنها عَذارى عليهنّ المَلاءُ المُذَيّل
ويركدن بالآصال حولي كأنني من العصم ادفى ينتحي الكيح اعقل[١٧]

اما المواضع فكانوا يذكرونها مقترنة بما قدموه فيها من بطولات ، فاذا ضنّ صديق بنائله على تأبط شراً ، وكان وصاله ضعيفاً ، خلاّه ونجا مثل نجائه من بجيلة ليلة خبت الرهط ، وليلة انفلاته بالعيكتين[١٨] ، واذا أراد الشنفرى ان يصف بعد مذهبه في الارض طلباً للغنيمة ، جعل خروجه من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا[١٩] ، اما العَوْص فكان له ذكر في شعره ، وكذلك يومه بذات الرس أو بطن منجل وجنب وحيس وتبالة[٢٠] . وغيرها من المواضع .

وتحدث الشعراء الصعاليك عن الشجر ، فحدد عروة منبت الاثل في غزوة جماعته قال[٢١] :

فانكم لن تبلغوا كل همتي ولا اربتي حتى تروا منبت الاثل

واشار الى الارض التي تنبت الشث والعرعر في اهداف غاراته فقال[٢٢] :

فيوماً على نجد وغارات اهلها ويوماً بارض ذات شث وعرعر

وخصّ تأبط شراً (الشث) و (الطُبّاق) لانهما يضمران راعيهما[٢٣] ، ووقف الشعراء الصعاليك عند شجر النبع في احاديثهم عن السهام[٢٤] ، وذكر تابط شراً الغضا في حديثه عن اصحابه ، واعجابه بجرأتهم ، وقدرتهم على النفاد في اعماق الصحراء ، فكأن عيونهم تتوقد حماسة وجرأة كتوقد (نار الغضا) الشديد

---

(١٦) الزمخشري . اعجب العجب/٦٩ .
(١٧) الادفى من الوعول : الذي طال قرنه وذهب قبل اذنيه ، وينتحى يعتمد ويقصد ، والكيح : عرض الجبل وسنده ، والاعقل الممتنع .
(١٨) المفضل . المفضليات ١/٢٦ .
(١٩) المفضل . المفضليات ١/١٠٨ .
(٢٠) انظر ديوان الشنفرى/٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ .
(٢١) عروة . الديوان/ .
(٢٢) عروة . الديوان/ .
(٢٣) انظر المفضليات ١/٢٦ .
(٢٤) انظر ديوان الشنفرى/٣٨ .

التوقد والحمرة ، ولابد ان تكون هذه النيران ذات أثر في حياتهم ، وخاصة عندما يشتد البرد ، وتقسو الطبيعة عليهم ، بلياليها الرهيبة فلايجدون سلوة الا هذه النيران التي يغذيها (الغضا) الجزل الشديد[٢٥] ، ويشبه عمرو ذو الكلب حدّ سهامه المرهفات بشوك شجر (العضاه)[٢٦] وذكر الشنفرى نبت (الحماط) و (العصنصر)[٢٧] .

وكانوا يعرضون لذكر المطر وقوته وشدته في احاديثهم عن غزواتهم التي كانت تدفعهم اليها الرغبة والحاجة ، فلم يجدوا ما يلفّوا به أجسادهم غير اكسيتهم[٢٨] . ويذكر السليك خروجه للغارة عشية يوم كثر فيه الضباب والمطر[٢٩] .

اما الرياح فكانوا يتحدثون عنها في معرض حديثهم عن سرعتهم ، أو سرعة اصحابهم ، فتأبط شراً عندما اراد أن يتحدث عن شدة سرعة صاحبه وقوتها قرنها بالريح ، وذكر انه يسبق الريح في سرعته فقال[٣٠] :

ويسبق وفدَ الريح من حيث ينتحي بمنخرق من شده المتدارك

واشار الشنفرى الى الريح في حديثه عن شعره الذي تلبد واتسخ ، لبعد عهده بالغسيل ، ولانه في قفر من الارض ، لم يجد فيه المجال للاهتمام بدهنه ، ولا ترجيله ، فاذا هبّت هذه الرياح لا تفرقه[٣١] .

ولابد ان يأتوا على ذكر (مناهل المياه) ، وهم يقطعون هذه المفازز ، للقيام بحملة ، أو ترقب قافلة ، أو مباغته جماعة ، قال عروة[٣٢] :

اذا ما هبطنا منهلاً في مخوفةٍ بعثناً ربيئاً في المرابيء كالجِذْل

---

(٢٥) الاصفهاني . الاغاني ١٨/٢١٤ .
(٢٦) عمرو ذو الكلب . شرح اشعار الهذليين ٢/٥٧٠ .
(٢٧) الشنفرى . الديوان/٣٥ .
(٢٨) ابو خراش . شرح اشعار الهذليين ٣/١٢٠٢ .
(٢٩) الاصفهاني . الاغاني ١٨/ .
(٣٠) ابو تمام . الحماسة . (المرزوقي) ١/٩٦ .
(٣١) الزمخشري . اعجب العجب/٦٦ .
(٣٢) عروة . الديوان/١٠٦ .

اما الماء القراح فقد أشار اليه عروة في حديثه عن الاكتفاء بالطعام فقال[٣٣] :

اقسم جسمي في جسوم كثيرة ... واحسو قراح الماء ، والماء بارد

وقال ابو خراش[٣٤] :

واغتبق الماءَ القَراحَ فأنتهي ... إذا الزادُ أمسى لُلمزَلَّج ذا طَعْمِ

وذكر الشنفرى الغدير في وصفه للسيف[٣٥] .

والحيوان بكل اشكاله ياخذ مكاناً بارزاً في احاديث الشعراء الصعاليك ، لانهم كانوا يجدون الفرصة مؤاتية لمقارنة عدوهم بعدو الظليم والظباء والطيور الجارحة والقطا والحمار الوحشي . فتابط شراً يصف نفسه ، وقد اصابه الذعر من مطارديه ، بالظليم المذعور ، أو الظبية فيقول[٣٦] :

كأنما حثحثوا حُصَاً قوادمُه ... أو أمّ خشفٍ بذي شثٍ وطَبّاق

لاشيء اسرعُ مني ليس ذا عُذُرٍ ... وذا جناحٍ بجنب الرّيد خفّاق

وكانوا يذكرون هذه الحيوانات ، وهي تحس بالصيادين يقتربون منها ، أو يعدون لها السهام ، أو يطلقون عليها الكلاب ، لتكون اسرع في عدوها . ويتحدث الشنفرى كذلك عن الحمار الوحشي المتلفت في حديثه عن غزوة من غزواته والتي يصف فيها المشرف على عملية الهجوم[٣٧] .

وكان الشعراء الصعاليك يخافون وقوع اجسادهم ، بعد قتلهم ، بين براثن الذئاب ومخالب الضباع واظافر الثعالب ، وخاصة اذا كانت هذه الحيوانات جائعة . وتعد الابيات التي وصف بها الاعلم هروبه نموذجاً فنياً كاملاً لهذا الرعب والفزع الذي ملأ نفوس الصعاليك ، وصورة حقيقية لما كان يساورهم اذا وقعوا فريسة بيد الخصوم . قال الاعلم[٣٨] :

---

(٣٣) عروة . الديوان/١٣٨ .
(٣٤) ابو خراش . شرح اشعار الهذليين ٣/١١٩٩ .
(٣٥) انظر المفضليات ١/١٠٩ .
(٣٦) المفضل . المفضليات ١/٢٦ .
(٣٧) انظر المفضليات ١/١٠٩ .
(٣٨) الاعلم . شرح اشعار الهذليين ١/٣١٤ .

وخشيت وقع ضريبة قد جُرّبت كُلّ التجارب
فاكون صيدهم بها للذئب والضُبْع السواغب
جزراً وللطير المُرِبّة والذئاب وللثعالب

والشاعر لم يقف عند هذا الحد ، وانما يحاول ان يهوّل المنظر ، ويبرز الألوان المخيفة في هذه الصورة ، فالضبع الذي يقع على جسده ضيع ذات جراء ، تسحب لحمه المتبقى اليهن لتملأ بطونهن ، وهناك ينزعن جلده نزعاً شديداً بمخالبهن المحددة فيقول[٣٩] :

وتَجُرُّ مُجْرِيَةٌ لها لحمي الى أَجْرٍ حَواشِب
سُودٍ سَحالِيلٍ كأَنّ جُلودَهُن ثيابُ راهِب
آذانُهن إذا احتفرن فريسةً مثلُ المذانب
ينزعن جِلْدَ المرءِ نَزْعَ القين اخلاق المذاهب

ويروى لنا تأبط شراً نجاته من مطارديه ، ويصور لنا مصيره لو لم يتمكن من النجاة فيقول[٤٠]

فزحزحت عنهم او تجثني منيتي بغبراء أو عرفاء تفري الدفائنا
كأني اراها الموت ، لادَرّ دَرّها اذا امكنت انيابها والبراثنا

ويتحدّى الشنفرى هذه المخاوف ، ويتمرد على هذه الصورة ، فيأبى دفن جثته بعد موته ، ويطلب تركها بالعراء ، لتكون طعماً لام عامر اي (الضبع) فيقول[٤١] :

لا تقبروني ان قبري محرّم عليكم ولكن ابشري امَّ عامر

وتحدث الشعراء الصعاليك عن الذئاب وشبهوا رفاقهم اذا خرجوا الى الغارة بها ، فكانت وجوههم مشرقة ، لا يظهر عليها الخوف[٤٢] ولا غرابة في هذا ، لان ثقتهم بأصحابهم تدفعهم الى هذا التصور ، واحاسيسهم التي يحسونها تجاههم وهم يؤدون مهماتهم تحملهم على هذا النظرة ، وكأنهم وجدوا في هذا الحيوان

(٣٩) نفس المصدر ١/٣١٤ .
(٤٠) الاصفهاني ١٨/٢١٣ .
(٤١) الشنفرى . الديوان/٣٦ .
(٤٢) انظر ديوان الشنفرى/٣٢ .

صورة تقرب من صورة حياتهم ، ونموذجاً يشبه النموذج الحياتي الذي نهجوه ، وربما تتضح لنا هذه الصورة في ابيات الشنفرى الذي استعاض بالذئب عن الاهل والاصحاب لانه وغيره من الحيوانات احفظ للسر واحرص على القيم الخلقية[٤٣] .

ومن الطبيعي ان يقل ذكر الخيل عند الصعاليك ، لان المنطقة التي مارسوا فيها نشاطهم ، منطقة جبلية مجدبة ، لا تصلح لتربيتها ، الا ما وجدناه عند عروة ، لان المنطقة التي سكنها كانت تغاير المناطق التي انتشر فيها الصعاليك ، فذكرها في بعض قصائده ، ورسم لها صورة وهي تطارد ابلاً[٤٤] كما عرض لها بعض الشعراء في مجال مقارنة انفسهم بها ، واظهار قدرتهم على سبقها .

وذكر الشنفرى دوي النحل في حديثه عن السهام وشدة انطلاقها فقال[٤٥] :

كأن حفيف النبل من فوق عجزها غوارب نحل اخطأ الغار مُطنف

واشار الى هرير الكلاب وطواف الذئاب وشبه نفسه بالقطا والصقر في حذرهما وزوال نومهما لادنى حركة او صوت[٤٦] وذكر ريش العقاب في حديثه عن السهم الذي يعده لاعدائه[٤٧] وشبه نفسه بابنة الرمل[٤٨] ، وذكر طعنة سامة تمج من حولها سم ثعبان خطر[٤٩] كما ذكر الافاعي في حديثه عن شدة الحر[٥٠] ونعت نفسه بالاسد[٥١] ، وعرض عروة للاسد كذلك ، ووصف هيئته وشكله وترقبه وزئيره[٥٢] ، الى جانب هذه الحيوانات فقد كانت هناك حيوانات اخرى استخدمها الشعراء الصعاليك مادة لتشبيه الصور التي كانت

---

(٤٣) انظر اعجب العجب/١٧ .
(٤٤) انظر ديوان عروة/٨٣ .
(٤٥) الشنفرى . الديوان/٣٨ .
(٤٦) انظر لاميته ٦٢-٦٣ .
(٤٧) انظر الديوان/٣٤ .
(٤٨) انظر اعجب العجب/٥٧ وابنة الرمل هي الحية .
(٤٩) انظر الديوان/٣٥ .
(٥٠) انظر اعجب العجب/٦٥ .
(٥١) انظر الديوان/٣٤ .
(٥٢) انظر ديوان عروة/٥٥ - ٥٦ .

تراودهم بها ، فذكروا النمر والارنب والمكاء والتيس والأروى والجراد والكلاب والمواشي .

ومن هنا نجد ان الشعراء لم يتحدثوا عن الحيوانات بحديث واحد ، وانما كانت احاديثهم متفاوتة ، فكلما كان الحيوان اقرب الى الوصف أو المقارنة ، كان حديثهم عنه اطول ، ووصفهم له ادق ، واستقصاؤهم لاعضائه والوانه أشمل ، واعتناؤهم بجزئياته أوفى وأكمل ، ولهذا وجدنا الظليم والنعام والحمار الوحشي والذئب والضبع والثعلب من أكثر الحيوانات وروداً في قصائدهم ، ومن ادقها وصفاً في احاديثهم ، لاستغلالها من قبلهم في مقارنة عدوهم وتشبيه انفسهم ، ونعت اصحابهم ، ومثل حديثهم عن الحيوانات ، كان حديثهم عن الطبيعة الصامتة ، فالوديان المخيفة ، والصحراء الموحشة ، والشعاب التي لا يهتدى اليها كانت تجد صدى في شعرهم ، لانهم اعتبروا اجتيازها مفخرة من المفاخر ، والاهتداء فيها ضرباً من ضروب البطولة ، اما الاشجار فلم يذكروا منها الا ما كان كثيفاً ومكتظاً وقوياً ، لانهم يستطيعون التستر وراءها ، أو يتخذون منها سلاحاً يدفعون به عن نفسهم هجمات الخصوم أو يمطرون به صيدهم الذي يهتدون اليه .

وهكذا عكس لنا الصعاليك الطبيعة ، ورسموا لنا صورها من خلال علاقتها بهم ، واتصالها بنشاطهم ، وقد وفقوا في تصويرها توفيقاً كبيراً .

الطبيعة في شعر الهذليين :

اما الشعراء الهذليون فقد اهتموا بالطبيعة اهتماماً كبيراً ، ومنحوها عناية خاصة ، ووجدوا فيها مجالاً للتعبير عن الافكار التي كانت تدور في اذهانهم ، واستخدموا صورها في مختلف احاديثهم ، فكانت اشارات الشعراء الى الجبال والهضاب والمراقب ، وكان لاشجار الاثل والطلح والطرفاء والنبع والتألب اثر بين عند شعراء هذيل لانهم استخدموها في جوانب كثيرة من حياتهم ، ولا غرابة في ذلك اذا علمنا أن المنطقة التي كانت تسكنها هذيل منطقة جبلية ، تضم كل ما صلب من الطبيعة الصامتة ، وقوي من الحيوان الضاري .

وكما وجد الشعراء الصعاليك في حديث المراقب مجالاً ، يمدحون بـه من يقوم بمهمة المراقبة واعتبروا ذلك ضرباً من ضروب البطولة ، فقد وجد الهذليون في هذه المراقب مجالاً واسعاً للمدح ، وميداناً فسيحاً لاظهار مكرمات الاشخاص الذين يمدحون او يرثون ، فعندما علم ابو المثلم بقتل صخر الغي رثاه بقصيدة ، وأشار لاول مكرمة من مكارمه ، وهي انه كان يربأ لاصحابه ، وينظر لهم ، ويحفظ عليهم حياتهم ، ويحذرهم من الاعداء فقال[٥٣] :

ربّاء مرقبةٍ منّاع مغلبةٍ ركّاب سلهبة قطّاع اقران

وفخر ابو كبير بكونه ربيئة في رأس هضبة مرتفعة ، طويلة العنق ، لا يرقى اليها راق ، ولا راع ، ولا يؤنس فيها الا الحمام ، يفخر بكونه ربيئة في الوقت الذي يتواكل فيه الرجال ، ولم يعد هناك من يقدر على حفظ نفسه فيقول[٥٤] :

ولقد ربأت إذا الرجال تواكلوا حَمَّ الظهيرة في اليفاع الاطول
في رأس مشرفةٍ القَذال كأنما أطرُ السحاب بها بياض المجدل
وعلوت مرتبئاً على مرهوبةٍ حصّاء ليس رقيبها في مثمل
عيطاء معنقة يكون انيسها ورق الحمام جميمها لم يؤكل

واشار مالك بن خالد في تحذيره لقومه في يوم شعب بني سليم ، الى أن في رأس الشعب رقيباً يرقبهم ، فليأخذوا حيطتهم منه ، وليكونوا على حذر[٥٥] .

وطبيعي ان يدفعهم هذا الى الحديث عن وعورة المرقبة ، وصخورها الناتئة ، والوديان التي تشرف عليها ، والشعاب التي تهدي اليها ، والشجر الذي ينمو في سفوح هذه الجبال والوديان ، أو انهم كانوا يعرضون لذكر هذه الاماكن ، وما يعتورها من الصخور في احاديث مطاردتهم للخصوم ، ومتابعتهم لهم ، أو مطاردة الخصوم لهم ، ومتابعتهم لآثارهم[٥٦] .

وفي تلك الاخبار ما يدل على الاهمية التي كانوا يعلقونها على هذه المراقب ،

---

(٥٣) ابو المثلم . شرح اشعار الهذليين ١/٢٨٥ .
(٥٤) ابو كبير . شرح اشعار الهذليين ٣/١٠٧٦ .
(٥٥) مالك بن خالد . شرح اشعار الهذليين ١/٤٥٩ .
(٥٦) انظر شرح اشعار الهذليين ١/٤٥٨ .

وعلى الرجال الذين يُختارون لهذه المهمة ، وفي شعر الهذليين امثلة كثيرة ، تغني عن الشرح ، وتفي بما يمكن أن يقال في هذا المجال ، تدل على اهتمام الشعراء بها ، وتأثرهم بما كانوا يلاقونه في سبيل الوصول اليها .

وفي حديثهم عن المفاخر ، كانوا يفخرون بمن يقطع الفيافي[٥٧] ويقدر على اجتياز المفارز ، والاراضي البعيدة ، ومن يُظهر قدرة على ورود مشارب المياه الصعبة[٥٨] . ومن يرد المياه التي لا تورد ، والتي لم يشرب منها احد منذ مدة طويلة ، حتى علاها الغلفق والعرمض والطحلب ، فاذا شرب منها وارتوى تركها تهتز ، كأن لم يكشف عنها[٥٩] . ويوغل الشاعر في بعد هذه المياه ، فيجعلها مقتصرة على الذئاب التي كانت تعاود الشرب منها مرة بعد مرة ، لان الذئاب ترتاد مثل هذه الاماكن الموغلة[٦٠] مدللين بذلك على جرأتهم وقوتهم .

وكان تأكيد المواضع عند الهذليين واضحاً ، واغلب ما تكون هذه المواضع مقترنة بذكر معركة أو مفخرة أو مكرمة أو هزيمة ، وكانوا يستمدون من ذكر هذه المواضع قوة تدفع بهم الى النصر[٦١] .

اما حديثهم عن الاشجار ، فكان حديثاً طويلاً ، ذكروا منه انواعاً لم تتهيء لآية فئة من الشعراء ، عددوا فيها انواعها ، واسماءَها ، ومن خلال احاديثهم هذه كنا نلمس ما كان يستخدم من هذه الاشجار في حياتهم العملية ، فكان النشم والقان ، وهما من الشجر الذي تتخذ منه القسي يذكرها الشاعر في حديثه عن الوعل الذي يأوى اليهما[٦٢] وأشاروا الى النبع والشوحط في حديثهم عن القسي الجيدة الكاتمة ، التي تشبه السبيكة في صفائها وحسنها[٦٣] ، وأشاروا الى شجر

---

(٥٧) انظر شرح اشعار الهذليين ١/ ٣٨٠ .
(٥٨) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/ ١١٥٤ .
(٥٩) نفس المصدر ٣/ ١٠٨٦ .
(٦٠) نفس المصدر ٣/ ١٠٨٦
(٦١) انظر شرح اشعار الهذليين ١/ ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ .
(٦٢) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/ ١١٢٥ .
(٦٣) نفس المصدر ١/ ٢٧٢ ، ٣/ ١١٦١ .

الاسحل في حديثهم عن صوت السهام ، وحدة نابها[٦٤] ، والضال الذي اتخذوا منه النبال[٦٥] ، وذكروا العرفط والصوم في احاديث الخوف والقلق التي كانت تنتابهم ، باعتبار الناظر اليهما يخشاهما ، ويحسب انساناً ينظر اليه[٦٦] . ووقفوا عند السدر ، والاثل والدوم في احاديثهم عن السيول ، وما كانت تجتاحه من الشجر ، فتطفو عليه[٦٧] ، والشث في احاديثهم عن اشادة البيوت واقامتها[٦٨] ، والخزم الذي كانوا يستخدمون قشورة لفتل الحبال[٦٩] . وهي ضرورية لهم ، لاستعمالها في اشتيار العسل ، والتدلي بواسطتها الى خلايا النحل ، والشبرق والارقان في حديثهم عن قتلى الخصوم[٧٠] . والطلح والطرفاء والسلم في احاديثهم عن العدائين الذين كانت تسلبهم هذه الاشجار ثيابهم ، لانهم عندما يهربون تتعلق فيتركونها[٧١] . وذكروا جذوع النخل في حديثهم عن الابل الجربى ، لانها كانت تنصب لها ، لتحتك بها ، فتستشفي – وربما كانوا يحرقون الشجر ، فيتبقى من اصوله شيء تحتك به الغنم ، وهو ماكانوا يسمونه الحكاك –[٧٢] وفي احاديثهم عن تشبيه الخيل[٧٤] ، وذكروا الغريف في حديثهم عن تمكن الجناة من التخفي فيه[٧٥] ، والبرير في اوصافهم للظباء وما كانت تتناوله من ثماره ، وهي بعيدة عن سهام الصيادين ، وحبال القانصين[٧٦] ، والارطى الذي كانت تستغيث بها الظباء اذا اصابها البلل[٧٧] ، واشجار اخرى مثل الكراث

---

(٦٤) نفس المصدر ٣/١٠٧٩ .
(٦٥) نفس المصدر ٣/١١٥٥ .
(٦٦) نفس المصدر ١/٣١٨ ، ٣/١١٢٥ .
(٦٧) نفس المصدر/١١٠٥ .
(٦٨) نفس المصدر ٣/١١٨٤ .
(٦٩) نفس المصدر ٣/١١٣٢ .
(٧٠) نفس المصدر ١/٢٨٦ ، ٤٧١ .
(٧١) نفس المصدر ١/٤٦٠ .
(٧٢) نفس المصدر ١/٤٥٠ .
(٧٣) نفس المصدر ١/١١١٧ .
(٧٤) نفس المصدر ٣/١٠٨٣–١٠٨٤ .
(٧٥) نفس المصدر ٣/١١٧٥ .
(٧٦) نفس المصدر ٣/١١١٠ .
(٧٧) شرح اشعار الهذليين ١/٢٩٤ – ٢٩٦٧ .

والغـــاب والبردي والظيـان والاشجـار الاخرى والتي وجـد فيهـا الشعراء مجالاً للوصف • أو التشبيه أو المقارنة ، وهي ظاهرة تدل على طبيعة هذه المنطقة التي سكنتها هذه القبيلة ، وتأثر الشعراء بهذه الطبيعة التي ملأت عليهم حســهم وتفكيرهم حتى دفعهم هذا التأثير الى استخدامها في كثير من جوانب حياتهم •

ولابد ان تكون هذه المنطقة المرتفعة غنية بالمطر ، وقد وجدنا صدى ذلك متمثلاً في اكثار الشعراء من احاديث السحاب والرياح التي تدفع هذه السحب ، والامطار والسيول التي تجتاح الاشجار ، وتحطها من الاماكن المرتفعة ، وارقهم للبرق وتأملهم فيه ، وحيرتهم في السحاب الذي لا يأخذ جهة معينة ، واحاديث اخرى كثيرة تطالعنا في اشعارهم ، فصخر الغي يفتتح قصيدة من قصائده بذكر البرق والرعد وصوت السحاب ، وشبه مشيه بمشي المقيّد ، الذي تقارب خطوه ثم عرض في ابياته لوصف المطر ، وكثرة نزوله على الجبال ، وغسلها وصقلها ، حتى تحسب للناظر ، من شدة وقع المطر عليها جمالاً قد طليت ونتفت[٧٧] • وذكر الســحاب ، وجلجلة صوت البَرَد الذي يســقطه[٧٨] وفي حديثه عن استجابة قومه لندائه شبههم بمسايل المياه لكثرة عددهم[٧٩] •

والاعلم يصف اعداءَه ، وهم يأتون في اثر بعض ، ويشـبههم بالسحاب الذي تخلله الرعد ، والصواعق المجلجلة فيه ، حتى إذا اصابتــه الريح كثر واجتمع[٨٠] ، واشار الى الضباب والغيم المرتفع في حديثه عن سرعة الظليم ، الذي اراد أن يبادر بيضه ، وقد احس بهــذه الظواهر[٨١] ، وكانوا يذكرون المطر ، وهم يراقبون فوق المراقب ، وعندها لم يجدوا شيئاً يستظلون به سوى الخشب الذي يقيمونه ، والثمام الذي يلقونه على هذه الاخشاب ، ليتقوا بهــا شــدته[٨٢] •

وذكر ساعدة بن جؤبة أرقه للبرق ، وتأمله فيه ، والسحاب ، والمواضع

---

(٧٨) نفس المصدر ١/٢٥٩ •
(٧٩) نفس المصدر ١/٢٦٩ •
(٨٠) نفس المصدر/٣١٢ •
(٨١) نفس المصدر/٣٢١ •
(٨٢) نفس المصدر ٣/١٠٧٧ •

التي نزل فيها ، ثم اشار الى السيل الذي حط الشجر[٨٣] ، وشبه الرعد بالهدير ، ووصف السحاب ، وما تراكب بعضه فوق بعض ، والسيل ، وما اكتسح امامه وما طفا فوقه ، وحاول ان يحدد المناطق التي اجتاحها هذا السيل[٨٤] . واشار ابو كبير الى السحاب ، وما تدلّى منه ، والبرق وما استطار منه والمطر[٨٥] واعاد ذكر البرق في حديثه عن تهلل اسرة الوجه[٨٦] . وشبه معقل بن خالد الجيش بالسحاب الذي فيه البرد[٨٧] ، وذكر ليالي جُمادى التي يتكاثر فيها الندى والضباب[٨٨] .

وحديثهم عن الرياح اقل من حديث الشعراء الصعاليك عنها ، لانهم لم يستخدموها في سبيل المقارنة والسرعة التي عرف بها الصعاليك ، والتي وجدوا فيها وجهاً واضحاً للمقارنة ، وانما اقتصروا على ذكرها في احاديثهم عن الهجاء ، كما جرى بين صخر الغي وابي المثلّم[٧٩] ، أو في حديث صخر الغي عن العقاب التي تركت فراخها ، فهما يتحركان كلما طلع الفجر ، واحسّا دوّي الريح فقال[٩٠] :

فُريخان ينضاعان في الفجر كلما أحسّا دوّي الريح أو صوت ناعب

اما المياه الصافية الباردة ، فكان شعراء هذيل يذكرونها من خلال احاديثهم عن العسل ، لانهم كانوا يمزجونها بالعسل ليقطعه[٩١] وهذا يدلنا على توفرها عندهم ، وطبيعي ان تكون متوفرة في مناطقهم التي يسكنونها لارتفاعها ولسقوط الامطار عليها ، واشار بعضهم الى ذكر الغدران في حديثه عن تشبيه السيوف

---

(٨٣) شرح اشعار الهذليين ٣/١١٧٧ .
(٨٤) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/١١٠٥ .
(٨٥) نفس المصدر ٣/١٠٩١ .
(٨٦) نفس المصدر ٣/١٠٧٤ .
(٨٧) نفس المصدر ١/٣٧٩ .
(٨٨) نفس المصدر ١/٣٨٩ .
(٨٩) نفس المصدر ١/٢٦٦ .
(٩٠) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ١/٢٥٢ .
(٩١) نفس المصدر ٣/١١١٢ ، ١١٤١ .

بها[٩٢] وعرض البعض الآخر لذكر الضفادع[٩٣] وهي اشارة اخرى الى وجود المياه المستديمة التي يربض فيها هذا الحيوان .

وتحدث الشعراء الهذليون عن الحيوان ، وعرضوا لاصنافه المختلفة ، فاستعملوها في مواضعها المعينة التي وجدوها صالحة لاستعمالها ، ومتفقة مع ما كان يدور في اذهانهم حولها ، ففي احاديثهم عن الموت ، كانوا يذكرون الوعول ، فصخر الغي يشير الى الفادر[٩٤] ، في حديثه عن الموت ، وكانه آخر ما يدركه واستغرق في اوصافه بعض ابيات من قصيدته ، فهو متوحش ، ويسكن في رمال لا يمكن أن تطأها الاقدام ، ومع هذا الايغال ، ومع هذه العزلة ، فهو يرتاع لكل صوت يسمعه ، لخوفه من المنايا[٩٥] ثم عاد لذكر هذا الحديث ثانية ، فتحدث عن العصم والنعام والاوابد التي لا تبقيها الايام فقال[٩٦] :

ارى الايام لا تُبقى كريماً ... ولا العُصْمَ الاوابد والنعاما
ولا العُصمَ العواقلَ في صخورٍ ... كسُبْنٍ على فراسنها خداما

وتحدثوا عن الحمار الوحشي، وعن خضوعه لارادة الموت فقال ابو كبير[٩٦]:

أخلاَ وان الدهر مُهلِكُ من ترى ... من ذي بنينَ وأمِّهم ومن ابنمِ
والدهر لا يبقى على حدثانه ... قُبٌ يَرون بذي شجونٍ مُبرمِ

وقال ساعدة بن جؤية[٩٨] :

ارى الدهر لا يبقى على حدثانه ... أبُودٌ باطراف المناعةَ جلْعَدُ
ولا اسفعُ الخدين طاوٍ كأنه ... إذا ما غدا في الصبح عضبٌ مهند

وذكر مالك بن خالد الظباءَ والآرام ، وسباع الارض كلها في حديثه عن

---

(٩٢) نفس المصدر ١/٤٤٨ .
(٩٣) نفس المصدر ٣/١١٧٤ .
(٩٤) الفادر : الرعل المسن .
(٩٥) انظر شرح اشعار الهذليين ١/٢٤٦ .
(٩٦) نفس المصدر ١/٢٨٧ .
(٩٧) ابو كبير . شرح اشعار الهذليين ٣/١٠٩٠ ، ١١٢٤ .
(٩٨) نفس المصدر ٣/١١٧٠-١١٧١ .

الموت ، وقال انها هالكة[٩٩] . اما الضبع ، فكما كان يخيف الصعاليك ، فهو يخيف الهذليين ، وتعتبر قصيدة الاعلم الهذلي من ابرز القصائد التي هَوّل بها خوف الشعراء من هذا الحيوان ، وما تصنعه بجسم الانسان بعد موته ، الى جانب الاوصاف الدقيقة التي اشار اليها في حديثه عنها[١٠٠] ، وحاول عميد بن الجعد أن يطرق المعنى الذي طرقه الاعلم ، فشبه نبال الخصوم ، وهي تُرشق على جماعته بالمطر ، من شدتها وتتابعها وكثرتها وسرعتها ، فحين تصبه هذه السهام ، يترك فريسة للضبع ، ولا شي ينجي منها الا العدو الشديد ، الذي يخرج فيه كل وظيف ما جمّ من العدو فقال[١٠١] :

لما رأيتهم كأن نبالهم ... بالجزع من نَقَرى نجاءُ خَريف
وعرفت أن من يثقفوه يتركوا ... للضبُع أو يصطف بشر مصيف
أيقنت أن لا شيء يُنجي منهمُ ... الا تَغَاوثُ جَمّ كل وظيف

ويتحدث ساعدة بن جؤية عن الضبع ، فيصف ذراعيها ، وما يكسوهما من شعر وينعت خفها ورأسها وكيف تسير في الليل متلفتة مترقبة ، تدير عينيها ، لا يخفى عليها شيء ، وهي تمر مراً سريعاً ، وتقصد ما ارتفع من الارض ، باعتبارها اماكن تدفن فيها الاموات ، وهناك تفتح يديها ، فتنبش القبور ، لتخرج منها الاموات[١٠٢] ؛ وهجا الاعلم شخصاً فشبهه بالضبع ، وتحدث عنها بثلاثة ابيات ، عرض فيها اوصافها الدقيقة[١٠٣] .

وتحدث الشعراء الهذليون عن الخيل ، فشبهها صخر الغي بالخيام لسوادها ثم شبهها بالغربان[١٠٤] ، واشار الى الخيول المستعملة في الصيد ووصفها بالطول[١٠٥] ، وذكر ابو المثلم الخيل في حديثه عن مفاخر قومه[١٠٦] ، واشار

---

(٩٩) نفس المصدر ١/٤٣٩ .
(١٠٠) شرح اشعار الهذليين ١/٣١٤ .
(١٠١) نفس المصدر ١/٤٦٤ والتغاوث : التعاون .
(١٠٢) نفس المصدر ٣/١١٤٧ ، ١١٤٨ .
(١٠٣) نفس المصدر ١/٣٢٢ .
(١٠٤) نفس المصدر ١/٢٥٩ .
(١٠٥) نفس المصدر ١/٢٩١ .
(١٠٦) نفس المصدر ١/٢٧٤ .

مالك بن خالد الى الخيول المستعملة في الحرب[١٠٧] . ويأتي على ذكرها ساعدة بن جؤبة في حديثه عن الحرب أيضاً ، فيذكر طولها واشرافها وضخامتها وانتهابها للارض في عدوها ، وقوة حوافرها ، واهتزازها من حدتها[١٠٨] . ثم يعود لذكرها في مواضع اخرى ، ويعرض لاوصاف غير تلك الاوصاف في نعته لها[١٠٩] . وهو لا يقل في اوصافه هذه عن بقية الشعراء الجاهليين الذين عرفوا باوصاف الخيل . وفي حديث الاعلم عن سرعته ، شبه نفسه بالظليم السريع الذي يعرض مع العشية للرئال[١١٠] ، ثم عاد لذكر النعامة وهي تبادر بيضها[١١١] ، وقارن مالك بن خالد بين سرعته وسرعة النعامة الخفيفة التي لم تكن بأسرع منه ، مهما كانت دواعي سرعتها[١١٢] .

وكان التشبيه بحمار الوحش محبباً الى نفوسهم ، لما يتمتع به هذا الحيوان من القوة والنشاط والسرعة ، فصاحب صخر الغي ، المتعود على الغزو يعدو كعدو الحمار[١١٣] ، وخصم الاعلم المنهزم حمار وحشي ، ضامر البطن ، عرضت له اتان سوداء الوجه في حمرة فهو شديد العدو[١١٤] ، وساعدة بن جؤية يشبه نفسه بالحمار الوحشي في نفاره ، وهو يخاطب صاحبته[١١٥] .

وتطالعنا بعض الاشارات عن الابل ، فساعدة بن جؤية يذكر الابل الكرام في حديثه عن الموت ، ويؤكد عدم قدرتها على دفعه ، مهما بلغت من العدو[١١٦] ، واشار صخر الغي الى جمال الحيرة في حديثه عن دعوة قومه الى الثبات ، والصمود ، لانها كانت تحمل الاحمال والاثقال ، وعلى الاغلب تكون احمالها ثقيلة[١١٧] .

---

(١٠٧) نفس المصدر/٤٦ .
(١٠٨) نفس المصدر/٣/١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٩ .
(١٠٩) شرح اشعار الهذليين ٣/١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٢ .
(١١٠) نفس المصدر ١/٣١٩ .
(١١١) نفس المصدر ١/٣٢٠ .
(١١٢) نفس المصدر ١/٤٦١ .
(١١٣) نفس المصدر ١/٣٠١ .
(١١٤) نفس المصدر ١/٣١٣ .
(١١٥) نفس المصدر ٣/١١٧٣ .
(١١٦) نفس المصدر ٣/١١٥٤ .
(١١٧) نفس المصدر ١/٢٨٣ .

اما النحل فكان له حديث طويل عند الهذليين ، واغلب ما كانوا يأتون على ذكره في احاديثهم عن تشبيه الثغور ، ومن ثم ينتقلون الى عملية التعسيل والنحل، والاماكن التي يأخذ النحل الشمع منها ، وحمله على اجنحته[١١٨] ، وشبه ساعدة جموع النحل بالسحاب[١١٩] وشبه ابو كبير النبال بالنحل الذي يلسع[١٢٠] ، وذكروا العقاب في حديثهم عن الموت[١٢١] ، واكدوا على شدة انقضاضه[١٢٢] وصور صخر الغي معركة بينها وبين غزال كان رابضاً الى جنب شجرات ، فانقضّت عليها العقاب[١٢٣] ، واشار الى الارانب التي كانت تطعم فراخها من لحومها[١٢٤] . ووقف ابو كبير عند الذئاب في حديثه عن الجوع[١٢٥] ، وكذلك الاعلم في حديثه عن مطاردة الخصوم له ، وكيف سيصبح نهباً للذئاب لو وقع[١٢٦] . واظهر صخر الغي قلقه وخوفه ، بعد ان احاط به الخصوم ، وجرح واستبطأ قومه ، وخشى أن يقع فريسة للذئاب العاوية[١٢٧] . وذكر الحمام في استثارة الشجون ومناداة الاصحاب[١٢٨] ، وهناك اشارات اخرى للاسود والنمور والافاعي والجراد والكلاب والبعوض .

من هذه النماذج التي عرضنا لها ندرك القيمة الفنية لشعر الطبيعة عند هذيل ، وكيف استغل الشعراء هذه الطبيعة ، فاستخدموها احسن استخدام ، وصوروها بكل اشكالها ، ملونين صورهم بالوانها الزاهية ، التي جعلتنا نحس بها احساساً فنياً ، مستعملين كل لون من الوانها في موضعه الطبيعي ، وهذا ما جعل صورهم واضحة المعالم ، مشرقة الالوان ، بينة الخطوط ، تحمل القاري على

---

(١١٨) نفس المصدر ٣/١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١٣٩ .
(١١٩) نفس المصدر ٣/١١٤٠ .
(١٢٠) نفس المصدر ٣/١٠٨٣ .
(١٢١) نفس المصدر ١/٢٥٠ .
(١٢٢) نفس المصدر ٣/١١٦٤ .
(١٢٣) شرح اشعار الهذليين ١/٢٥١ .
(١٢٤) نفس المصدر ١/٢٥٠ .
(١٢٥) نفس المصدر ١/١٠٨٦ .
(١٢٦) نفس المصدر ١/٣١٤ .
(١٢٧) نفس المصدر ١/٢٨٠ .
(١٢٨) نفس المصدر ١/٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ١١٥٧٢ .

قبولها ، وتدفعه الى الاعتقاد بانهم وفقوا في هذه الالواح توفيقاً كلياً لا يقل عن توفيق الشعراء الصعاليك ، فلم تكن صورهم جامدة ، ميتة ، ولم تكن ألفاظهم بعيدة متنافرة ، بحيث تدخل الملل في النفس ، أو تضطر القاريء على السأم منها ، فاذا تحدثوا عن الطبيعة الصامتة ، منحوها ما تحتاجه من مظاهر ، الى جانب الاحاسيس الذاتية التي كانت تتداخل في وجدانهم ، وهم ينقلون هذه الالواح • اما حديثهم عن الحيوان فهم يرسمون مشاهده كما تتراءى لهم ، ملاحظين اعضاءه الدقيقة ، ومصورين الصفات البارزة ، ومستخدمين براعتهم وقدرتهم في توضيح الاجزاء التي يريدون الحديث عنها ، محاولين أن يقدموا الادلة الكافية التي تقنع القاري ، وتقرر في ذهنه الحقيقة المتكامله التي رسخت في ذهن الشاعر لهذا الحيوان • وبالتالي فان هذه المجموعة الشعرية خير دليل لدراسة طبيعة هذه المنطقة ، وما كانت عليه في تلك العصور ، وانها تفتح آفاقاً جديدة امام دارسي الجغرافية الطبيعة ، لتحديد طبيعة هذه المنطقة ، ودراسة احوالها من خلال هذه المجموعة الشعرية ، التي تكمن فيها قابلية هذه الطائفة من الشعراء ، وتختفي بين أبياتها قدرتهم على التعبير ، فكانت صورهم الخالدة ، وأشعارهم التي تنبض بالحيوية والابداع •

الطبيعة في شعر الحواضر

كان نصيب شعراء الحواضر من معالجة الطبيعة اقل ، لبعدهم عنها ، وقلة حاجتهم لها ، لان الحواضر شغلتهم بحياتها ، وعودتهم اسلوبا من الحياة ، مغايرا لاسلوب اولئك الذين اتخذوا البادية مجالاً لحياتهم ، فكانت الصور التي عرضوا لها صوراً حضرية ، تتمثل في اوصاف النخيل والازهار والرياحين والحيوانات الأليفة ، التي اعتادت الحياة معهم ، فألفوا صورها ، وتحسسوا معانيها ، وتأملوا اشكالها والوانها ، أما الحيوانات الاخرى ، والتي عودنا الشعراء الآخرون رؤيتها ، فكانت تأتي من خلال اوصافهم لرحلاتهم ـ كما عودنا الاعشى ذلك ـ فهو يشبه راحلته بالثور الوحشي والبقرة الوحشية التي اكل السبع ولدها تارة ، والنعام المذعور تارة اخرى ، وكان يقف في اوصافه هذه عند مظاهر الصحراء البارزة ، فالسراب اللامع ، والرمال الملتهبة والمياه الآجنة

والصخور التي تعثر طريق هذه الراحلة • كلها كانت تصادفه وهو يشق هذه الفلاة المقفرة عند الهاجرة •• ثم يعرض لصرير الجندب وصياح البوم ، وعواء الذئاب والظباء التي تخرجها هذه الناقة من اكناسها ، والقطا الهاجد الذي تبعثه من مكمنه ، وكلاب الصيادين التي تنبعث كالسهام لمطاردة البقرة الوحشية ، هذه الصور كنا نجدها عند الاعشى تتكرر وسوف نقتصر في حديثنا على ثلاثة من شعراء الحواضر يمثلون أماكن مختلفة هم : الاعشى وعدي بن زيد وقيس بن الحظيم اما الاعشى فتعتبر الصورة التي قدمها لحاضرته واضحة ، اذا جردناها من الصور التقليدية التي حاول اقحامها في اوصافه ومدائحه والتي كان يكرر فيها صورة الصحراء العمياء الموحشة ، وهو في رحلته الى الممدوح ، على ناقة ضخمة ، تدلّى شعر رقبتها ، سلسة القياد او ضامرة ، لا تتعثر في طريقها ، تنطلق وقت الهاجرة ، حين يخفق الآل ، ويرتفع السراب ، وتنطق بالهول مسالكها المخيفة ، وقد برى السير سنامها ، فغارت عيونها ، وهي لا تمل الاستجابة لراكبها ، كلما استحثها على الاسراع ، تعتسف الطريق اعتسافاً ، تاركة وراءها أثر اخفافها مطبوعاً على الرمال ثم يشبه الاعشى ناقته هذه في كفاحها الطويل للتغلب على مصاعب الصحراء ، وفي تخطيها لكل ما تصادفه من عقبات ببقرة وحشية ، ثم يتطرق الى تصوير هذه البقرة فيضفي عليها طابعاً من المأساة ، فيذكر انها خلفت طفلها ، فباتت وحيدة مستوحشة ، تضم احشاءها على حزن ، ولما اسلمها ليلها الحزين الى الصباح باكرها الصياد بكلابه الضارية ، المعودة على الصيد ، فاندفعت ، وقد اغراها بهذه البقرة الصياد ، فلم تزل تجري وتجول ، هنا وهناك تحاور هذه الكلاب وتداورها حتى اجهدها الجولان وعند ذلك لم تجد بداً من الاستبسال ، فتكر على الكلاب كرّة عنيفة ، فتنهزم هذه الكلاب ، ويكرر الاعشى هذه الصورة مرتين[١٢٩] ، اما تشبيهه لناقته بالثور الوحشي أو الحمار الوحشي فكان كثيراً[١٣٠] وهو يختم الصورة دائماً بعبارة ، وذلك بعد الجهد شبهت ناقتي ،

---

(١٢٩) انظر ديوان الاعشى/ ١٧١-٧٣ ، ١٠٣-١٠٧ •

(١٣٠) انظر ديوان الاعشى/ ١١٩-١٢١ ، ١٦٣ - ١٦٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٣٢٥ ، ٣٦١ •

أو فذلك شبهته ناقتي ، أو ذاك شبهت ناقتي ، وتكاد تكون صورة الاعشى للناقة وتشبيهاتها واحدة في كل هذه القصائد لا أثر للابتكار فيها ، ولا مجال للابداع في الوانها وخطوطها ، فهي قوالب مكررة مملّة ، يعيدها في كل قصيدة مدح أو وصف ، ويقحم فيها الصور اقحاماً . وكما تحدث عن الناقة ، وهي تحمله الى الممدوح ، فقد تحدث عنها وعن الخيل في نعت هبات الممدوح ، فهو يهب المائة المصطفاة كالنخل ، وكل كميت كأنه الجذع[١٣١] ، كما كان يشير اليها في مدح من يقدمها طعاماً له ، ولضيوفه في السنوات الشديدة[١٣٢] ، وفي حديثه عن ديات القتلى[١٣٣] . والى جانب صورة الخيل التي قرنها بصورة الابل في الكرم ، كان يشير اليها في حديثه عن حروب الممدوح التي كان يخوضها ، وكان من خلال ذلك يذكر أوصافها فهي تشبه الثور الوحشي في قوتها وصلابتها ، وتضارع جذع النخلة في طولها واستوائها ، وتماثل الباز في انقضاضه وتعويده المطاردة[١٣٤] ، وهي شعث أجهدها التعب ، تندفع للقتال بكل قوة ، ضامرة البطون ، ترجم الارض بحوافرها حين تجري ، وكان يحرص على كثرتها فيذكرها على صيغة الجمع[١٣٥] .

وتبدو صناعة الشاعر في هذه القصائد ، من الألفاظ التي يكررها ، والجمل التي يستعملها والنعوت التي ينعت بها هذه الرواحل ، وقد اقتصر في اوصافه على الاشكال الخارجية لهذه الحيوانات ، ولم يعرض لاوصافها الاخرى ، التي تدل على معايشة لها ، واحساس بفائدتها ، كما عودنا الشعراء الآخرون الذين عرضوا لهذه الاوصاف ، فهي لم تكن مجرد رواحل يستخدمونها في النقل ، وانما هي بضعة من نفوسهم ، يشاطرونها الألم ، ويقاسمونها المتاعب ، وراحلة الاعشى ،

---

(١٣١) انظر ديوان الاعشى/٢١ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٥١ ، ١٨٥ ، ٢٤٥ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ .

(١٣٢) انظر ديوان الاعشى/٢١ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٥١ ، ١٨٥ ، ٢٤٥ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ .

(١٣٣) انظر ديوان الاعشى/٢١ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٥١ ، ١٨٥ ، ٢٤٥ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ .

(١٣٤) انظر ديوان الاعشى/٨٦ ، ٢٣٥ ، ٣٦٥ .

(١٣٥) ديوان الاعشى/٣٥٩ .

وسيلة لنقله الى الممدوح يقطع بها الصحراء المقفرة التي يكلف نفسه وصفها ، لتزيد حظوته لدى هذا الممدوح ، وليقدمها بين يديه قصيدة تحمّل من اجلها مصاعب السفر ، ومتاعب القفار .

ان جمود شاعرية الاعشى واخفاقه في تصوير الطبيعة لا يمثل في تصوير الناقة فحسب وانما يتمثل في الجوانب الاخرى من الطبيعة ، وكذلك موقفه بالنسبة للحيوانات الاخرى التي وقف عندها ، فاوصافه لها ، اوصاف مجردة ، بعيدة عن الدقة والاستقصاء ، فالصحراء لا يعرفها الا قاحلة مقفرة ، ولا يحس بها الا عندما تنعدم فيها الظلال ، وتسكب فيها الشمس حرارتها ، متناسياً الصور الاخرى التي وجد فيها الشعراء مجالا رحباً من مجالات الوصف ، وميداناً فسيحاً استمدوا منه الالوان الزاهية الملتمعة في قصائدهم . وكذلك فهو لا يعرف الكلاب الا في حديثه عن مطاردتها للبقرة الوحشية وانكماشها من شدة البرد ، فلا تستطيع النباح الا هريراً خافتاً ، ليخلص من ذلك الى كرم ممدوحه في هذه الاوقات[١٣٦] واعاد ذكرها في حديثه عن السفهاء ، وشبه لغوهم بنباحها[١٣٧] . والاسد لا يراه ممثلا الا في صورة الممدوح أو صورة نفسه[١٣٨] ، وذكرة مرة واحدة في تشبيه الضيوف بالنسبة للبخلاء[١٣٩] والعقاب لا يتصورها الا عندما يريد تشبيه انقضاض الممدوح أو فرسه[١٤٠] ، وهكذا يعرض لبقية الحيوانات كالنعام[١٤١] والظباء[١٤٢] والغزلان[١٤٣] والنحل[١٤٤] والنمل[١٤٥] والذئاب[١٤٦] والحمام[١٤٧]

---

(١٣٦) انظر ديوان الاعشى/٧٣ ، ٩٥ ، ١٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٤١ ، ٢٧٩ ، ٣٦٣ .
(١٣٧) نفس المصدر/١١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٧٣ .
(١٣٨) نفس المصدر/٦٧ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٣٤١ .
(١٣٩) نفس المصدر/٦٥ .
(١٤٠) نفس المصدر/٢١ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٢٣٣ ، ٢٦١ ، ٢٧١ .
(١٤١) نفس المصدر/٨٩ ، ١٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ .
(١٤٢) نفس المصدر/٥، ٦٧، ٧٧، ١٦٣، ٢٠٩، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٥٧، ٢٧٣ .
(١٤٣) نفس المصدر/٥ ، ٢٧ ، ٢٨٥ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٥ .
(١٤٤) نفس المصدر/٢٥ ، ٢١٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥ .
(١٤٥) نفس المصدر/١٩ ، ١٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٦١ .
(١٤٦) انظر ديوان الاعشى/١٩ ، ١٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٦١ .
(١٤٧) نفس المصدر/١٢٩ ، ١٥٣ ، ١٩٥ .

والقطا[١٤٨] والغراب[١٤٩] والديكة[١٥٠] والثعالب[١٥١] والبوم[١٥٢] والوعول[١٥٣] والتيوس[١٥٤] والافاعي[١٥٥] والرقم[١٥٦] والضباع[١٥٧] والارانب[١٥٨] والجراد[١٥٩] والعقارب[١٦٠] والخنافس[١٦١] والهر[١٦٢] .

اما الرياح والسحاب والبرق والامطار والسيول ، فكان يأتي عليها في احاديثه عن الناقة التي يشبهها بالثور وقد اهزله ، ففاجأه المطر الذي تسوقه ريح الشمال ، فبات ليلته فوق تل من الرمال ، وقد اندس تحت اغصان الشجر[١٦٣] ، ويعيد الصورة ثانية في تشبيه ناقته بالثور ثم يذكر كفاح هذا الثور المرير ، والرياح الشمالية الهوجاء ، وهي تعصف من حوله ، وهو مكب على اصل شجرة يحفر بقرنيه[١٦٤] ، ويعيدها ثالثة ورابعة وخامسة[١٦٥] .

وكان يأتي على ذكر الرياح في حديثه عن الاطلال التي تعبث بها ، الصبا والشمال[١٦٦] ، أو تتعاورها الصبا بما تحمله من الامطار[١٦٧] ، وكان يذكرها في حديثه عن الآبار الراكدة التي لم تزل تسفى عليها الرياح التراب حتى

---

(١٤٨) نفس المصدر/٦٧ ، ٣٥٣ ، ٣٧٣ .
(١٤٩) نفس المصدر/١٧١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ .
(١٥٠) نفس المصدر/٤٧ ، ٦٩ ، ٢٠٣ .
(١٥١) نفس المصدر/٢٥١ ، ٢٨٩ .
(١٥٢) نفس المصدر/٧٣ ، ١٠٣ .
(١٥٣) نفس المصدر/١٠١ ، ١٦٧ .
(١٥٤) نفس المصدر/٢٣ ، ٢٣٧ .
(١٥٥) نفس المصدر/٦٥ ، ٢٠٧ .
(١٥٦) نفس المصدر/٢٦٥ .
(١٥٧) نفس المصدر/١٨٣ .
(١٥٨) نفس المصدر/١١٥ .
(١٥٩) نفس المصدر/١٧٥ .
(١٦٠) نفس المصدر/١١٣ .
(١٦١) نفس المصدر/٢٤٥ .
(١٦٢) نفس المصدر/٢٧ .
(١٦٣) نفس المصدر/٢٧٩ .
(١٦٤) نفس المصدر/٢٩٥ .
(١٦٥) نفس المصدر/٢١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٦٣ .
(١٦٦) نفس المصدر/٣ .
(١٦٧) نفس المصدر/١٧٥ .

اندفيت ، مدللاً بذلك على جرأته في التوغل الى اعماق الصحراء[١٦٨] ، ووقف عندها في حديثه عن الكرم الذي اضفاه على اولئك الذين قدم لهم قصائد المدح ، فهم يبذلون الطعام اذا انقطع المطر ، وهبت ريح الشمال بالثلج والصقيع ، وهم يكرمون اذا احمرت السماء ، وهبت رياح الشتاء الباردة. وهذا ادعى للكرم ، لانه الوقت الذي يمتحن فيه الكرماء[١٦٩] وذكر رياح الدبور في حديثه عن الجمال الكثيرة التي ازدحمت في المسالك الضيقة ، فاصبح لها صوت كحفيف الحصاد حين تهزه هذه الريح[١٧٠] وغيرها من الصور التي تحدث فيها عن الرياح[١٧١] ، وتحدث عن البرق في سياق حديثه عن قصر ريمان ، ليلفت نظر صاحبه اليه ، وهو يلمع ، فيثير اعجابه حين تنشق السحب وقد سدت الآفاق[١٧٢] وافتتح احدى قصائد المدح بالبرق الذي لاح من فوق الجبال[١٧٣] .

وفي حديثه عن الكرم ، وجود الممدوح اشار لنهر الفرات ـ ولابد ان يكون متأثراً بالنابغة الذي استعمل هذه الصورة في مدائحه ـ وذكر ان هذا النهر اذا ازبد ، وتلاطمت امواجه فكب السفينة ، ذات القلاع ، وقد لجأ ملاحوها الى مؤخرتها ، بعد ان تمايل وسطها ، ليس هذا النهر باجود من ممدوحه وقت الجدب ، وحين ينقطع المطر[١٧٤] وكرر هذه الصورة مرات عديدة[١٧٥] . اما المياه الباردة فكان يذكرها في حديثه عن مزجها بالخمرة[١٧٦] . واعتبر ورود المياه من المفاخر ـ على عادة الشعراء الجاهليين ـ لان الضعفاء يطردون عنها[١٧٧] .

والصور كما تبدو واضحة التكلف ، يكرر فيها الشاعر الألفاظ والصور والمعاني والاعشى يتحدث مثلاً عن المطر ، وهو لا يحس الفرحة التي تغمر

---

(١٦٨) نفس المصدر/٣ ، ١٩ ، ٣٧٣ .
(١٦٩) انظر ديوان الاعشى/٣٣٣ ، ٣٧١ .
(١٧٠) نفس المصدر/٣٩ .
(١٧١) نفس المصدر/٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٨٥ ، ٣٤٥ .
(١٧٢) نفس المصدر/٢٨٥ .
(١٧٣) نفس المصدر/٣٤١ .
(١٧٤) نفس المصدر/٣٩ .
(١٧٥) نفس المصدر/٥١ ، ٢٩٩ ، ١٠٩ ، ٣٣٩ .
(١٧٦) نفس المصدر/١٧ ، ٩٣ .
(١٧٧) نفس المصدر/١٦١ ، ١٩٩ .

البدوي في باديته ، وهو يتأمل هذه الغيث ، ويراقب بريقه ، لحاجته اليه ، يتحدث عنه ، وهو لا يُدرك قيمة هذه النعمة التي تغنى بها الشاعر المحتاج لها ، المرتبط بها ، فاظهر فرحه الذي تمثل في وقفاته الطويلة ، وهو ينظر اليه ، فكانت مشاركته وجدانية ، وتجاوبه حسياً • يتميز بالصور الجميلة التي اتحفونا بها ، وهذا ما لم نجد له أثراً عند الاعشى •

اما الجانب الذي نستطيع تلمسه في احاديث الاعشى لصور الطبيعة فهي الاحاديث التي عرض فيها لذكر الرياض المعشبة ، والحدائق الغناء ، التي تفتح فيها الورد ، وازهرت الرياحين ، والنخيل التي استمدّ منها كثيراً من تشبيهاته وصوره ، هذه الاحاديث وحدها هي التي نستطيع أن نعتبرها جديدة ، وهي وحدها يمكن اعتبارها خطاً جديداً واتجاهاً متميزاً في اوصاف الطبيعة ، والتي لم نجد لها شبيهاً عند الشعراء الآخرين الذين عاشوا في بيئات صحراوية بعيدين عن حياة الاستقرار التي نعم بها أهل الحواضر •

ان نظرة واحدة الى هذه التشبيهات والصور ، تغنينا عن كل ما يمكن ان يقال وهذا وحده جعل القدامى يقفون عند بعض الواحه ، فيحكمون عليها بالتفضيل ، ويجمعون على ذلك واعتبروا وصفه للروضة من اجود ما قيل(١٧٨) والذي يبدو من هذا أن الاعشى استخدم معظم مظاهر الطبيعة ، في مدائحه متخذاً منها وسيلة من وسائل هذا المدح ، يصل بواسطتها الى نفوس الممدوحين ، لينال رضاهم ، لذلك كان تعرضه للجوانب الملائمة لهذه الغاية ، وهذا ما دفعه ـ بصورة غير مباشرة الى تكرير الاساليب والصور والمعاني ، على أن هذا لا يقلل من قيمة شعره الذي صور فيه حاضرته ، وما تراءى له من جوانب الطبيعة في هذه الحاضرة بمقدار ما اتسع له المجال ، ويعتبر وصفه للنخيل وكثرة استخدامه له من ابرز هذه المظاهر •

---

(١٧٨) ابو هلال العسكري • ديوان المعاني ١٢/٢ والابيات مذكورة في ديوان الاعشى/٥٧ •

وتكاد الصورة تختلف عند عدي بن زيد عما وجدناها عند الاعشى ، فلم نجد في شعره تلك الرحلات التقليدية التي اصبحت ميزة من ميزات شعر الاعشى ، ولم نجد ذلك الالحاح المتزايد على صورة الناقة التي كانت تحمله الى الممدوح. ولم نلمس المظاهر الطبيعية الاخرى التي كان يعرض لها من خلال هذه الاوصاف ليكمل صورة المصاعب والمشاق ، والتي كان يريد اظهارها في حضرة الممدوح ، ليكون العطاء اجزل ، اقول هذه الصورة وغيرها مما كانت تتعلق بالمدح أو الممدوح تختفي بصورة واضحة عند عدي ، وتـكاد صورة الصحراء تموت في ديوانه ، لولا بعض المظاهر التي كان يعرض لها في حديثه عن فرسه التي استغرق وصفها جزءً كبيراً ، اذا قيست بغيرها من الحيوانات .

لقد حاول عدي أن يقف عند الاطلال التي تعفت ، لما تعاور عليهـا من الزمن ، ولم يبق منها الا الحفر التي تشبه الكتاب[١٧٩] . ووقف عندها ثانيـة يستفهم عن رسومها[١٨٠] وتأملها ثالثة في رثائه لعلقمة بن عدي[١٨١] وكأنـه وجد في استذكار اثار الديار سبباً من اسباب استثارة الاحـزان ، وخلق الجو الشعري المناسب للبكاء ، والظاهرة التي تلاحظ عند عدي بعد انتهائه ـ في الحالة الاولى ـ من الوقوف على الطلل ، كان ينتقل الى وصف رحلته ، وصحبه ، على فرس عكاظي من العتاق ، سريع له صهيل كدوي الرعد ، ولا يحمل معه زاداً ، ثقة بما يصيده ويقيده من الوحوش ، ثم يعرض لاوصاف هـذا الفرس ، وهـذه الصورة ، من الصور النادرة في الشعر الجاهلي ، لان الشعراء عودونا على تسلية الهم ، بعد وقوفهم على الاطلال ، بناقة جسرة ، أو ذمول أو مرقال أو غير هـذه الاوصاف ، التي تنطوي على معاني السـرعة ، اما تسليـة الهم على فرس سـريع فنادر[١٨٢] ، وربما تكون هذه الصفة ، أو هذه الطريقة مقتصرة على الشـعراء

---

(١٧٩) انظر ديوان عدي بن زيد/٧٣ .
(١٨٠) نفس المصدر/١٠٢ .
(١٨١) نفس المصدر/١٥٧ .
(١٨٢) نفس المصدر/٧٤ ، ٧٥ .

الفرسان او الشعراء الذين عنوا بوصف الخيل ، فوجدوا في هذه الصحراء ميداناً لاظهار كرمها وعتقها ونجابتها

اما الرياح والسحاب والرعد والمطر ، فكانت وقفاته عندها قصيرة ، وكانت احاديث الرياح تقترن بالمطر في بعض الجوانب ، فالمطر الذي يسقي بطن العقيق يترك امره لريح الجنوب[١٨٣] ، وهي تستحلب المطر من السحاب المتكاثف[١٨٤] ، والسحاب الكثيف الذي دنا من الارض ، تسوقه ريح الشمال فلا يسير الا كسير الكسير[١٨٥] ، وشبه دوي الرعد باصوات الابل أو حنين النيب[١٨٦] ، وجري الفرس بدفعه المطر[١٨٧] ، ووقف عند ماء السحاب ، والماء الزلال ، والمطر الجاري ، والماء الصافي في حديثه عن مزج الخمرة[١٨٨] ، ويصر عدي على الا يكون الماء الذي يمزجه ، أو يشربه آجناً ، أو متغير الألوان ، كما كان الشعراء الجاهليون يذكرون ، باعتبار أن الذي يشرب هذه المياه ، الموغلة في اعماق الصحراء ، والتي لم يشرب منها أحد لا يمكن ان يصل اليها الا جريء مغامر ، لا يخشى ، ولا يخاف ، وذلك من مفاخرهم ، وهذه الصورة تتغير عند عدي ، بسبب الطابع الحضاري الذي طبع حياته ، ولابد ان تتغير مع ذلك المفاهيم والقيم ، فتصبح تلك الصورة غير صالحة لمقياس الجرأة والفخر .

اما الرياض والاماكن المعشبة ، فقد وردت في شعره ، وهو يتحدث عن الانهار ، والخيول ، التي ترتمي فيها ، وتجري في طرائقها ، وتنتشر بين ربوعها[١٨٩] ، وذكر الخزامى والزهور في حديثه عن اوصاف الظعون والوانها[١٩٠] ، وورد ذكر الاقحوان مشبهاً به بياض الاسنان[١٩١] .

---

(١٨٣) انظر ديوان عدي/٣٨ .
(١٨٤) نفس المصدر/٨٦ .
(١٨٥) نفس المصدر/٨٦ .
(١٨٦) نفس المصدر/٣٨ .
(١٨٧) نفس المصدر/٥١ .
(١٨٨) نفس المصدر/٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١٦٦ .
(١٨٩) نفس المصدر/٥١ ، ٥٥ .
(١٩٠) نفس المصدر/٦٠ .
(١٩١) نفس المصدر/٤٢ ، ٧٧ ، ١٥٧ .

واشار الى الاثمار [١٩٢] ، وعدد من انواعها التفاح [١٩٣] والتين [١٩٤] ، وشبه بالنخيل الظعون [١٩٥] - على عادة غيره من الشعراء - وشبه بها الخيل ، وذكر الارياف في حديثه عن كرم الممدوح [١٩٦] . وكل هذه الاشارات جديدة الى حد ما بالنسبة لما عهدناه في احاديث الشعراء الآخرين ، الذين لم يذوقوا طعم الحياة الحضرية ، لانهم استعاضوا عن هذه الصور ، بصور اخرى استمدوها من طبيعة الحياة الصحراوية ، فاستخدموها في صورهم ، وعرضوا لها في اوصافهم ، فجاءت صورهم مطابقة للبيئات التي نشأوا فيها .

اما المناطق التي كانت تجاور الحيرة - بلد الشاعر - فكانت واضحة ، بينة يقف عندها كثيراً [١٩٧] ، ووجد في الجبال امكنة حصينة يلاذ بها [١٩٨] ، واشار اليها في حديثه عن خطوب الدهر وقوتها ، وكيف تودي بها [١٩٩] . وكان النصيب الاوفى من الطبيعة الحية في شعر عدي هو الخيل ، لان تعرضه لها كان اشمل ، وهو يقف في اوصافه لها الى جانب الشعراء الذين عنوا بوصفها عناية كاملة ، واهتموا باحوالها ، وعرضوا لذكرها في مجالات كثيرة من مجالات شعرهم ، فاهتمامه بها لا يقل عن اولئك الشعراء ، الذين عرفوا بنعت الخيل ، فهو لم يقصر في اطعامها ، والاحسان اليها ، خوفاً من ان ترى ضائعة [٢٠٠] ، وتعهد اضمارها ، والرفق بها في ركوبها [٢٠١] ، وهبوطه بها الوديان [٢٠٢] ، وكان يشيد بسرعتها ، وسهولة قيادتها وارتفاعها وخفتها ، وغلظ قوائمها ، وشدة عظامها ، وانها لا تلجم الا لاداء حق ، أو دفع ضيم ، او لحمي ذمار [٢٠٣] ، ومن خلال هذه الاحاديث ،

(١٩٢) عدي بن زيد . الديوان/ ٦٠ .
(١٩٣) نفس المصدر/ ١٥٧ .
(١٩٤) نفس المصدر/ ١٥٩ .
(١٩٥) نفس المصدر/ ١٣١ .
(١٩٦) نفس المصدر/ ٥٥ .
(١٩٧) نفس المصدر/ ٣٨ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٨٦ .
(١٩٨) المصدر/ ٥٥ .
(١٩٩) نفس المصدر/ ٨٢ ، ٨٣ .
(٢٠٠) نفس المصدر/ ٨٢ ، ١٤٠ .
(٢٠١) نفس المصدر/ ١٤١ .
(٢٠٢) نفس المصدر/ ٥١٢٤٤ .
(٢٠٣) نفس المصدر/ ١٥٣ .

كان يقف عند بعض اعضائها ، فيشبه عنقها بجذع النخلة ، وآذانها بالقلم ، وذنبها بذيل العروس ، ثم يستدق باوصافها ، فينعت شعرنا صيتها ، ويصف ارساغها وحوافرها[٢٠٤] ، وخدها واستواء قامتها وتناسقها مشيراً الى المهام التي تعد اليها[٢٠٥] ، مشبهها بالحمر الوحشية[٢٠٦] ، والنعام النافر[٢٠٧] والذئب[٢٠٨] . وقد حرص على ان يكون كرّه للفرس في حومة الموت من المفاخر التي يرثى بها ، ويندب على قبره بذكرها[٢٠٩] وهذه من ادلة الفروسية .

وعدي بن زيد في هذه الافاضة بوصف الخيل يعطينا صورة لمجتمع الحيرة ، الذي أولى الخيل هذا الاهتمام ، ومنحها هذه الرعاية الكاملة ، باعتبارها من العوامل المؤثرة في توجيه كثير من حوادث التاريخ ، لانها العنصر البارز في تحديد عمليات الانتصار ، وعلى ثباتها وقوتها ، يتوقف مصير كثير من الدول في تلك الفترة .

واشار الى الناقة في حديثه عن ظعون الاحبة ، ليتخذ منها وسيلة لوصف راحلته التي تنقله الى قابوس ، وعرض البعض اوصافها ، فهي ناقة امينة وثيقة ، يقضي بها اربه ، وتبلغه هذا الممدوح ، والصورة تذكرنا بصور الاعشى المكررة ، ولكنها اوجز[٢١٠] ، وتتكرر صورة أخرى من صور الاعشى عند عدي ، فممدوح الاعشى يهب المائة المصطفاة كالنخل ، وكل كميت كأنه الجذع ، وممدوح عدي يهدي الألف محبوساً هجائنها ، والدهم شعث الذرى سوداء[٢١١] ، وهو يقرن في كرم هذا الممدوح النوق بالخيل ، وهي صورة مكررة كثيراً عند الاعشى .

وذكر الطيور وهي تبني اوكارها في اعالي الشجر . وتستقر فيها وذكر

---

(٢٠٤) نفس المصدر/١٦٩ .
(٢٠٥) انظر ديوان عدي بن زيد/١٧٣ .
(٢٠٦) نفس المصدر/٤٤ ، ١٧٤ .
(٢٠٧) نفس المصدر/١٧٤ .
(٢٠٨) نفس المصدر/١٧٥ .
(٢٠٩) نفس المصدر/٩٦ .
(٢١٠) نفس المصدر/٨٠ .
(٢١١) نفس المصدر/٥٤ ـ ٥٥ .

القصور[٢١٢] ، وهي تذكرنا ببعض صور الأعشى ، واشار اليها عدي في حديثه عن الخلود • وان الطيور لا بد ان تقع تحت طائلة الموت[٢١٣] ، وشبه الاثافي وتقاربها بالحمام[٢١٤]، وهي من الصور التي تداولها الشعراء في حديثهم عن الاطلال، وتحدث عن النسور ، وهي تأكل لحوم القتلى ، وتسكن الاماكن المرتفعة[٢١٥] والبوم ، وهي تأنس في الاماكن المهجورة[٢١٦] ، والباز وهو ينقضّ على الحمام[٢١٧] ، وعين الديك في حديثه عن الخمرة الصافية[٢١٨] والتي عودنا الاعشى على رؤيتها في احاديثه عن الخمرة ، ولأول مرة تقريباً نجد ذكراً للبغال في قطع المفاوز[٢١٩] ، اما الثعالب فقد ذكرها وهو بصدد رثاء مدينة الحضر[٢٢٠]، وكنّى بها وبالضباع عن الاعداء[٢٢١] وبالاسد عن القوة[٢٢٢]، وشبه صاحبته بالظبية[٢٢٣] •

وهكذا نجد عدي يقدم صورة تقريبية لحاضرته التي عاشها ، فهو لم يكلّف نفسه أو شعره عناء التقليد ـ كما وجدنا عند الاعشى ـ ليأتي بالصور الغريبة التي أجهدت الاعشى، فجاءت صوره واحدة، الى جانب البساطة اللفظية التي يحسها القارىء لشعره ، وهو يقرأ الديوان ، ويدقق معانيه ، ويتأمل صوره ، وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بالطابع الحضاري الذي اضفى على شعره هذه المسحة ، واكسبها هذا اللون الواضح ، فجاءت بهذا الشكل •

---

(٢١٢) نفس المصدر/٨٨ •
(٢١٣) نفس المصدر/٦٥ •
(٢١٤) نفس المصدر/٧٣ •
(٢١٥) انظر ديوان عدي/٦٦ ، ٧٢ ، ٧٩ •
(٢١٦) نفس المصدر/٤٦ •
(٢١٧) نفس المصدر/٧٣ •
(٢١٨) نفس المصدر/٧٨ •
(٢١٩) نفس المصدر/٤٦ •
(٢٢٠) نفس المصدر/٤٨ •
(٢٢١) نفس المصدر/٣٥ •
(٢٢٢) نفس المصدر/٦٥ •
(٢٢٣) نفس المصدر/٧٠ ، ١٠٠ •

قيس بن الخطيم :

ويعد قيس بن الخطيم من اقل الشعراء تعرضاً لاوصاف الطبيعة ، لانصرافه الى معالجة القضايا الحربية ، التي كانت تخوضها قبيلته مع الخزرج ، ولابد ان يحملة هذا الرد الآني ، الذي كانت تستوجبه طبيعة هذه القصائد الى الابتعاد عن الامور الفنية ، التي وجدناها عند غيره من الشعراء ، الى جانب حياته الحضرية التي ابعدته عن الوقوف على الطلل ، لاستذكار ايامه ، والتعرض من خلال هذه الاوصاف لذكر الرياح والامطار والسيول ، التي تغير معالم هذه الآثار ، خلا اشارتين تعرض فيهما الى الاطلال[٢٢٤] . واظن ذلك من باب التقليد والمجاراة ، واسلوبهما يدل على هذا الظن ، اما بقية المظاهر ، فقد وقف عندها وقفات قليلة ، فهو يشير الى الحرات التي كانت تحيط بالمدينة ، ويذكر احمرار لونها بسبب ما سال عليها من الدم[٢٢٥] ، والى الاطام والاكام والحزون[٢٢٦] ، والرياض التي ينبت فيها الخوذان كالمصابيح[٢٢٧] ، والنخيل الذي كرره في كثير من الصور[٢٢٨] .

ووقف عند بعض النواحي والاماكن التي كانت تحيط بالمدينة في معرض حديثه عن المعارك التي خاضتها قبيلته[٢٢٩] . وعرض لذكر الجبل في حديثه عن قومه ، وكانت اشاراته الى السحب المثقلة ، والامطار والسيول خفيفة ، ووقفاته عندها سريعة[٢٣٠] .

اما الطبيعة الحية ، فيُعَدُّ الاسد اكثر الحيوانات ذكراً عند قيس ، فكان يشبه به قومه ، وربما كان لانتشار الاسود في جزيرة العرب اثر في رسم الصورة المرعبة التي علقت بذهن الشاعر ، فوجدها صالحة لوصف ابطال قومه

---

(٢٢٤) انظر ديوان قيس بن الخطيم (مطلوب) / ٣١ ، ٣٨ .
(٢٢٥) نفس المصدر / ٤٥ .
(٢٢٦) نفس المصدر / ٦٠ ، ٦٥ .
(٢٢٧) نفس المصدر / ٢٨ .
(٢٢٨) نفس المصدر / ٢٦ .
(٢٢٩) نفس المصدر / ٢٤٤ ، ٥٠ .
(٢٣٠) نفس المصدر / ٢٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٥٨ .

بها ، ليكون يأسهم على خصومهم اقوى ، وصورتهم في قلوبهم افزع[٢٣١] . وكان يأتي على ذكر الابل في حديثه عن سير الرجال الى الحرب ، وهم يقابلون خصومهم ، وتجمعهم ، وقيامهم في المعركة[٢٣٢] وذكر الناقة العظيمة في حديثه عن الكرم ، وفي حديثه عن حرب حاطب ، ونعتها بالصلابة والشدة ، لسيرها في الطريق الذي يجهد من يسلكه ، واشار اليها وهي تباري المطايا الأُخر[٢٣٣] ويذكرها مرة واحدة في مجال نسيان الحب ، وتسلية الهموم بالسفر والرحلة ، على ناقة كريمة سريعة[٢٣٤] . ثم عاد يصور هذه الناقة ـ على عادة الشعراء الجاهليين ـ بالظليم الذي يباري النعامة ، ليخلص الى شدة سرعة هذه الناقة[٢٣٥] .

ولابد ان يشير الى الخيل لاهميتها في الحرب ، وهو الشاعر الذي وقف يعدد مفاخر قومه ، فينعت طولها وجريها وعددها وقوائمها وسبيها ، فيشبهها بالجرادة ، لسرعتها وخفتها وضمورها ، وتحدث عن الحيوانات الاخرى حديثاً مقتضباً ، كان اقرب الى الاشارة منه الى الشرح والافاضة والاستقصاء ، فذكر البقرة[٢٣٦] ، والغنم[٢٣٧] والجراد[٢٣٨] والغراب[٢٣٩] والظباء[٢٤٠] والقطا[٢٤١] والحمام[٢٤٢] والضباع[٢٤٣] والاسود والنمور[٢٤٤] .

---

(٢٣١) نفس المصدر/١٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٣ .
(٢٣٢) نفس المصدر/٣٣ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٠ .
(٢٣٣) انظر ديوان قيس بن الحظيم/٦٢ ، ٦٤ .
(٢٣٤) نفس المصدر/٦٩ .
(٢٣٥) نفس المصدر ٦٩ .
(٢٣٦) نفس المصدر/٤٠ .
(٢٣٧) نفس المصدر/
(٢٣٨) نفس المصدر/
(٢٣٩) نفس المصدر/٤٣ .
(٢٤٠) نفس المصدر/٤٤ ، ٦٩ .
(٢٤١) نفس المصدر/٤٥ ، ٧٣ .
(٢٤٢) نفس المصدر/٤٩ .
(٢٤٣) نفس المصدر/٥٠ .
(٢٤٤) نفس المصدر/٦٠ .

واغلب هذه الحيوانات يشير اليها عرضاً ، ولهذا كانت اشارته اليها عابرة ، وربما استعملها من باب الكناية أو المجاز ، وطبيعي ألا تكون معالجته معالجة دقيقة لكل المظاهر التي عرض لها في شعره ، لابتعاده عنها ، وعدم حاجته اليها ، وهذا يؤكد لنا حقيقة الشاعر الجاهلي ، فهو يقف عند الظاهرة التي ينتفع أو يتأثر بها ، وكانت استجابته لهذه المظاهر قوية .